قاسم امين وباحثة البادية

(٨)

المقابلة بينهما

« فباحثة البادية بين النساء المصريات بل المسلمات بل الشرقيات عموماً لا يقل فضلها في الغرب على مساوىء الاسرة عندنا والحض على وجوب تعليم المرأة لتحرير عقلها وتقويم اخلاقها بالعلم الصحيح عن فضل قاسم امين في وجوب تحريرها . وان كانت لم تطالب لها بهذا التحرير الى الغاية القصوى مثله . لانها لم تطالب النساء الحجاب بالكلية . وهو رأي في نظر البعض وجيه »
الدكتور شبلي شميل (١)

« نحن لا نكتب طمعاً في ان ننال تصفيق الجهال وعامة الناس . . . وانما نكتب لاهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع امانينا في المستقبل فهي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها ان تحل مسألة المرأة المكان الذي تستحقه من العناية والبحث . قاسم امين (٢)

« حبذا لو تصفح هذا الكتاب النفيس (تحرير المرأة) كل من يغار على وطنه وأمته وساعد مؤلفه في بث آرائه بين الجمهور » المقتطف (٣)

للحياة في ابنائها مآرب . تعطي بعضهم نفساً يكبرها الفكر والعاطفة ، وتلقي في اعماقها وديعة النبوغ فيصير بها صاحبها كأنما هو النقطة المركزية التي تتصل بها اسلاك جميع الشعورات والخبرات والتذكارات والآمال . ما طغى ظالم في الارض الا اهتزت منه الجوارح حمية وحنقاً . ولا استبدت جماعة بجماعة او جنس بجنس الا أطلق صوته يدمدم كالعواصف لانه صوت انفجرت فيه اصوات من يتوجعون ولا يدرون كيف يتظلمون . ولا ضربت العلل الاجتماعية في بيئة عنوة الا وحمل مشرط الجراح ولفائف المؤاسي وقام يبضع يوماً ويضمد يوماً . تنزل به وبجاره نكبة واحدة في آن واحد فيئن الجار كفرد بشري ، ويصرخ هو وفي صراخه عويل جميع الذين قضوا وكانوا قبل الموت فريسة اليأس والهوان . وقد تكثر المحن على هذا « السعيد التعس » لانه كما ان

---

(١) انظر باب التقاريظ في « النسائيات » (٢) « المرأة الجديدة » (٣) في تقريظ كتاب « تحرير المرأة »

السلم الشافي لا تجود به الشجرة العطرية الا بعد ان ينشر ثوبها ويتجرّح صدرها فتجول حول كلومها اليد الشديدة متلمسة السائل الزكي — كذلك لا تخرج المناداة بالاصلاح القومي والتقويم العمراني الا من اعماق نفس شققتها نصال الرزايا وجالت يد الالم تجس فيها آثار الجراح بلا إشفاق

تشيع الامهات مناولات بناتهن قبس الحياة المنير ويظل « الهاتف » المتيد يتنقل محجوباً بين الاجنة والمواليد من أهل الديار ونزيلها ، والخمول الدهري مخيم على الجماعة الى ان يجيء وقت اليقظة. اذ ذاك يبرز هاتفاً في الناس فيجفلون. فيلقاه بعضهم ساخطاً محتقراً ، وغيرهم ناقداً متعنتاً ، ويصغي آخرون بعامع النفس والرغبة ، وبدهشة الحب والاعجاب . وسواء صمت آذانهم جميعاً ام كانوا من المنصتين فان صدى الصوت يظل متردداً حول الافكار والعادات حتى يندمج فيها ، فلا يلبث ان يصير الرأي واقعاً والاقتراح اصلاحاً. لماذا يجيء هذا الصوت الفعّال من افراد دون افراد — مع ان الهاتفين كثير — وفي زمن دون آخر ؟ ذلك سرّ من اسرار الحياة . وللحياة في الامكنة والازمنة والافراد مآرب

لم يكن قاسم امين مصري الاصل وان كان مصري المنبت والبيئة ، وتام التمصر وطنية واخلاصاً . لكن الحياة اختارته ليقول ما لم يقله احد في مصر الحديثة قبله ، وليترك في النشء اثراً جليلاً لم يكن لغيره . لقد قرأت كتبه بعد « نسائيات » الباحثة في عام واحد (١٩١٤) فصار بديهياً ان يمتزج ذكراها في نفسي ، فما افكر في الواحد الا تناسق اسم الآخر ومذهبه في خاطري . واني لاحسب من واجب الاقرار بالجميل ان اكرّس له سطوراً في ختام هذا البحث ، لانه عمل لغاية سمت اليها الباحثة بعده وان كان عمل كلٍّ منهما مدموغاً بفطرته الخاصة ، سائراً نحو الكعبة المشتركة في طريقين يتحاذيان ويتباعدان على طول المسافة. لقد نمت الكاتبة عن نفسها اتباع مذهب قاسم ، او التشيع له ، بتورطها في ردّها على قصيدة شوقي بك :

« فلاه اكثرت الملامة واقتصمت لمقتلي
وسقيتني من مرّ قولك مثل نقع الحنظل
ونسبتني حيناً لمذهب قاسم ورأي علي
تعنيت ويلك انني امارة بتسفل »

وهو إنكار يدلُّ ايضاً على انها لم تنصفهُ — ولا اجرأ ان أقول انها لم تفهمهُ . وكيف اجرأ على ذلك وانا اعتقد على رغم مني ، بانَّ تأثيرهُ فيها كان عظيماً ، وانها لم تتناول القلم بشجاعة إلا لان قمهُ أوحى اليها ميثاقاً لها في النفوس ميلاً وواضعاً في الافكار قابليةً واستعداداً . إنها لمست مثلهُ نقطاً معينة وارتأت إصلاحها تقريباً على الوجه الذي يطلبهُ. وهل يمكن ان لا تنفعل امرأةٌ راقية بكتابات هي الاولى من نوعها ، ممن لم يرد للمرأة وللامة الاَّ خيراً ؟ لذلك اعود مجاهرة باعتقادي بأنها ابنته بالفكر والجرأة وتلميذتهُ في المناداة باصلاح شؤون النساء . ولا ينفي ذلك ما بينهما من خلاف زهيد. لان الاستاذ والتلميذ وان اتحدت كلمتهما ، فان كلاًّ منهما يظلُّ جارياً وراء طبيعتهِ يظهرها وينميها . واَبينُ شاهدٍ على ذلك تجدهُ بين ذروتي الفكر الاغريقي : أفلاطون وارسطو . فان كان افلاطون زعيم الفلسفة الايديالستية الكمالية الذي لا يبارى فان التلميذ ارسطو انفصل عن استاذهِ حتى صار اسمهُ مرادفاً لاسم الفلسفة العلمية العملية

***

هي تكتبُ كما تتكلم بفطرتها البسيطة ، وهو كذلك يكتبُ كما يتكلم بفطرتهِ البسيطة. الاَّ ان فطرتها هي نسائيةٌ فتنتقدُ وتنكت وتتألمُ وتشفقُ ، وترتقي منبراً خيالياً تخطبُ بالاصلاح ، ثم تضحكُ وتبكي ، وتأتي بجميع الاقوال والحركات التي تجعلُ المرأة محبوبةً كالطامل ، بليغةً كالشاعر، خلاَّبةً كالسحار. أما هو . . . فقلبٌ تتقلهُ العواطف الطروبة وفكرٌ شغفٌ بالعدل والانصاف والحقيقة. يحبُ الخير والصلاح كما انهُ يحبُ اللفتات الحلوة والكلمات اللطيفة . في ثنايا روحهِ شاعرٌ ينشدُ وينوحُ ساعة يقول :

« يشعر العاشق بلذة ساحرة اذا كان محبوباً واذا كان غير محبوب فيجد في ألمه لذة اخرى مشابهة للسكر » . اكثر الناس لا يفهمون من الحب الا انه أكلة لذيذة اذا حضرت اكلوها هنيئاً واذا غابت استعاضوها بغيرها . والحقيقة انه احساس عميق يستولي على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس اخرى احتياجاً ضرورياً كاحتياج النبات الى الشمس والغريق الى الهواء . نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالاً . ومرض يقاسي فيه العاشق عذاباً يظهر باحتقان في مخه وخفقان في قلبه واضطراب في أعصابه واختلال في نظام حياته يظهر على الاخص في الاكل وفي النوم وفي الشغل . ويجعله غير صالح لشيء سوى انه يقضي أوقاته شاخصاً الى صورة محبوبته مستغرقاً في عبادتها ذاكراً أوصافها وحركاتها وشاراتها وكلامها . نظرة في عيون محبوبته

تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل انه ماشٍ في طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة وطائر في الارتفاعات العالية فوق قريب السماء . وفي هذه اللحظة يكون سعيداً أسعد من اكبر ملوك الارض فاذا انقضت عاد الى ما كان فيه من العذاب والالم » (١)

في هذا المزاج الذي جمع بين الذكاء الفطري والمعرفة المكتسبة والخبرة الواسعة ، بين جدّ رجل القانون ودقة الاديب الطروب يتكوّن الاحتياج الشديد الى الاصلاح . لاننا اذا اردنا اصلاحاً في التعليم مثلاً فلا ننتظره ممن لا يحسنون القراءة . واذا اردنا تعديل القانون وتنقية الاحكام فلا نطلبهُ من مستبدٍ قانونهُ أنانيتهُ . واذا شئنا تصفية الذوق وتلطيف الشعور فلا نلجأ الى الطبائع الخشنة والشعائر الضخمة ، بل نأمل في الفكر المعقول والعقل الراجح والنفس المتقدة عواطف ، لتسوق بالناس الى حبّ التحسّن والرفعة المعنوية . ورقيقُ القلب فاذُ الفكر يتعذّبُ بمعاشرة من لا يشبههُ ، ولا يميلُ الاَّ الى من تمام معهُ ، فينتخب اصدقاءهُ انتخاباً لا يجعلهُ متساهلاً فيه احتياجهُ المؤلم الى خلٍّ وفيٍّ . إقرأ كيف يصوّر قاسم الصديقين :

« تأمل في مسامرة صديقين تجد انها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كلٌّ منهما روحه في روح الآخر فيسري عقلهما من موضوع الى موضوع وينتقل من الجزئيات الى الكليات ويمر على الآمال والآلام والقبيح والحسن والناقص والكامل . كلّ عمل او فكر أو حادث او اختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً ويفيد نفسيهما لذةً جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذةً جديدة وتزيد في رابطة الالفة بينهما عقدة جديدة » (٢)

فاذا كان هذا ما يطلبهُ من صديقهِ فماذا تراهُ يطلبُ من تلك التي هي زوجتهُ ، وقد قيل ان العاقل يتخبُ لنفسهِ امرأة جامعة لكلّ الصفات التي يريدها في الصديق ؟ ماذا يطلب من المخلوقة التي ينفعلُ الرجل مرغماً بتأثيرها في كل ادوارهِ وفي كلّ خطوة يخطوها سواء شاء او لم يشأ ، ينفعلُ بتأثيرها غريبةً وقريبةً ، عابرةً في سبيلهِ او شريكةً لهُ في حياتهِ ؟ ماذا يطلبُ ، وهل عندهُ ما هو طالبٌ محقٌ ؟ هو يجيب عن هذا السؤال :

« كل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمرّ به بدون ان يشعر حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط نفساهما ببعض حتى يذهل كل من أيهما يتكلم وأيهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف

---

(١) « كلمات » قسم امين ٢ « تحرير المرأة »

بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وامه او اخته أو زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فانا نشفق عليهن ونحن اليهن ونطلبهن . ولكن لا نكمل عشقنا لهن لان الحب التام هو ذلك التوافق وهو معدوم » (١)

هو يعرف المرأة لانهُ يعرفُ الرجل ، ويعرفهما معاً لانهُ يعرفُ الطبيعة البشرية . ترى من يستطيع ان يكتب كلمة كهذه إن لم يكن قدخبر احوال الناس، وتقدم عن كلّ حرفٍ من حروفها نقطة من أثمن دماء قلبهِ : « كلما قدرتُ على ان اقوم بخدمة طلبها مني صديقٌ اسفتُ على خسارتهِ وعددتهُ عدواً جديداً » (٢) فلا عجب من أن هذا الذي ينفذُ بنظره الى أقاصي الوجدان طائفاً بين الغاز الميل والنفور يتمكنُ من لمس تمتمت المرائر واحصاء نبضات القلوب . وايُّ حدسٍ متيقظ مصيب في هذا البيان : « يوجد اناس متى رأيتهم أو عمتهم تشعر بنقص في خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود » (٣)

واذا حاولتُ اجمال شخصيتهِ ووضع عنوان لها ما وجدتُ افضل من سطورهِ الآتية :

« يظهر لي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لجهازه العصبي فأكثر الناس استعداداً للرقي هم العصبيون الذين تبلغ منهم الاتصالات النفسية مبلغاً عظيماً وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون . اولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الاول مخاطرين بانفسهم يتنافسون فيما بينهم بمصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي اليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو ولياً طاهراً او فيلسوفاً حكيماً أو نبياً كريماً » (٤)

أو قاسماً أميناً ...

لاني اظن ، على ما أرى من كتاباتهِ وصورتهِ الموضوعة في صدر « كلمات » ، انهُ ان لم يكن مزاجهُ عصبياً بحتاً ففيهِ منهُ شيءٌ كثير

***

كل هذه العناصر النفسية تجمعت فكان أغلبها عنصر القضاء . هو يلاحظ الاشياء ويراقبُ الحوادث مدققاً ممحصاً ويحكم بفطرتهِ لها أو عليها ، وجاءت ممارسةُ القانون فزادت تلك الملكة ظهوراً . هو قاضٍ في جميع كتاباتهِ يجلسُ على منصة العدل غير ملتفت كالخطيب ، الى انهُ اعلى مكاناً من الجالسين ، وانهُ يجبُ أن

(١) تحرير المرأة ٢ و٣ و٤ « كلمات قاسم امين »

يرفع صوتهُ ليسمع السامعون . بل يجلس جلوساً طبيعياً لانَّ تلك المنصة مكانهُ . ويتكلم بلهجة بسيطة يرى الاشياء حولهُ فيدوّنها ويقول : « اعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل » (١) . ويسمع الاقوال فيسجلها ، وهو الخبير عما فيها من رسم تقسية جمهور كبير من الناس ، وعما تقيده على قائلها من وفى فكريّ ، واستسلام ذليل : « سئل ح . بك : — ما رأيك في كتاب تحرير المرأة ؟ فاجاب رديء !! — هل قرأتهُ ؟ — لا — أما يجب ان تطلع عليهِ قبل ان تحكم برداءتهِ ؟ — ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأيي » (٢)

واذا اهتم بموضوع اجرى فيهِ تحقيقاً يتناولُ جميع فروعهِ العمرانية والسيكولوجية والعلمية والوراثية والعائلية والوسطية ، فيجاهر بما يراهُ حقاً وقد لا يفهمهُ الآخرون ، ولا يخشى لوماً بتسمية العيوب والامراض باسمائها . يجاهر غير منتبه للصواعق المنقضة عليهِ ممن لا يحسنون الاّ مضغ كلمات تلقنوها يوماً فتجمدت معانيها في افكارهم ، وفاخروا باحتكار الحقيقة . انهُ يبصر اللفائف البالية الفاسدة على قروح قديمة فيمدُّ اليها يدهُ الجريئة ، وبينا العليلُ يغلظ القول محتجاً باسم الدين والامة والشرف والعائلة ينزع هو تلك الاربطة هادىء الجأش ، ويحللُ الجراثيم الخبيثة الراكدة عليها فيحصيها واحداً فواحداً . انّ نظرة الحب تلمع في عين هذا الآسي . ولا يروعهُ ضجيجُ الساخطين ، بل يصمتُ عالماً بان التمرّد اولُ ادوار الشفاء واذا تكلم قال بسذاجة :

« نحن نعلم ان رجلاً يعيش في عالم الخيال يكتب في مكتبهِ على ورقة أن ليس على النساء الا ان يقرن في بيوتهن ناعمات البال تحت كفالة ورعاية الرجال . نعم ذلك على الورق لان الورق يحتمل كل شيء » (٣)

وكما ان الطبيب منهُ ودود كذلك القاضي منكر . هذا يصغي الى اقوال الشهود ويجمع حيثيات حكمهِ في حين ان ذاك يغوص في نفس المتهم ويقلب صفحات حياتهِ حتى يصل الى كلمة الاستهلال ، حتى يصل الى امهِ . نعم امهُ كيف كانت ، وكيف ربت هذا المسكين ، وعلى اي وجه تربت هي قبل ان تلتقي بالذي صار فيما بعد اباً له ؟ ويتسلسل بحثهُ الى نساء أخريات ، والى جميع النساء ، فيرى حالتهن كما هي ، ويعذر الذي يناقضهُ في الرأي لانهُ لم يرَ ما رأى هو . فلا

---

١ و ٢ « كلمات قاسم امين » ٣ « المرأة الجديدة »

يجد ذلك صعوبةً في ان يحكم على المرأة بالانزواء في المنزل . واقرأ :

« يجد الصعوبة رجل اعتاد ان يحلل النظريات ويختبرها بقياسها الى الواقع . فانه اذا اراد مثلاً ان يحصل لنفسه رأياً في ما هي حقوق النساء التي نحن بصددها يجب عليه اولاً ان يسوق نظره الى الوقائع التي تمر امامه . اعني ان يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها في ذهنه متنقلةً ومصولاً بها في قرية ثم في مدينة ثم في اقليم وتتمثل امامه النساء في جميع اعمارهن واحوالهن وطبقاتهن فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل . ويراهن في البيت وفي المدرسة وفي الغيط وفي الدكان وفي الاماكن العامة . ويقف على سلوكهن مع ازواجهن واولادهن واقاربهن والاجانب . ثم يعرف البلاد التي للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا في بلادهن وكيف أنهن يستعملن حقوقهن والنتائج التي ترتبت على هذا الاستعمال . ويقف على حالة المرأة في الازمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها » . « فاذا توفر ذلك كله له لم يتيسر له ان يحكم في المسألة حكماً قطعياً . لانه يعلم ان رأيه قائم على مقدمات ظنية فلا تكون نتائجها الا تقريبية . لذلك تراه دائماً على طريق البحث . لا يركن الى ما وصل اليه جهده الا ليضعه قاعدةً لعمل موقت . ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل » (١)

لا يستطيع المرء ان يكون « قاضياً » عادلاً أكثر مما يظهره قاسم امين في هذه الفقرة . وانك لتجد هذه النزاهة والامانة والانصاف في كل ما كتب . لذلك هو يخفي العواطف وينساها ما استطاع لانها ، كما يقولون ، تحول بين الفكر والعدل . ويظل متكلماً بعقله ، منادياً بالهدوء والرزانة والسير على القواعد العلمية والانتفاع بالمشاهدات الاجتماعية ، ووجوب ضبط الانفعالات على الدوام . وعلى رغم ذلك فان نفسه لا يفتر ابداً حتى اذا وصل الى فكرة لمست من قلبه مكاناً حساساً ارسل كلمات تشبه في مؤاساتها لمسة التدليل والتحبب على جبهة رضيع عزيز :

« أليس من الغريب ان لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة ابداً مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار ان نتصور ان امهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة انفسهن ؟ أيليق ان لا نثق بهؤلاء العزيزات الضربات الطاهرات وان نسيء الظن بهن الى هذا الحد ؟ » (٢)

وفي وسط كل هذه الابحاث الجدية الخالي معظمها من التأثر والشعور يشعر القارىء بان قلب الرجل ليس بعيداً . ان قاسماً احب المرأة حباً جماً . وقد خط لها رسماً يشرفها في هذه الالفاظ الوجيزة : « كلما اردت ان اتخيل السعادة تمثلت امامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل » (٣) . امرأة يجد فيها :

« لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق في العمل مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وسمو القلب وصدق اللسان وطهارة

---

١ « المرأة الجديدة » ٢ و ٣ « تحرير المرأة »

الذمة وعظم الامانة والاخلاص في الولاء ونحو ذلك من الفضائل المنوية التي ترجع عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية » (١)

هذا هو مثله النسائي الاعلى ، وبهذا المثل القاطن جوارحه يسير في سبيل الحياة مراقباً المرأة المصرية في خبرته القانونية ، وفي العائلة والاجتماع والامة جميعاً. فماذا يجد ؟ يجد ما يدفعه الى كتابة كل ما كتب في سبيل اصلاحها . يجد ما يجعله يقول في التمهيد لكتاب « تحرير المرأة » :

« اكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت عليّ بالتجربة وأخذت بمجامع خواطري. ولا اريد ان اذكر شيئاً منها لعلمي انها ما تركت ذهناً حتى طافت به ولا خاطراً حتى وردت عليه. فإن مثار هذه الحوادث جميعاً شيء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها »

ويرى يوماً فتاة صغيرة يعجبه منها الذكاء والجمال فيشير على والدها بتعليمها ويجيب هذا بانها تتعلم ادارة المنزل ، وهذا يكفي. فيشفق قاسم على هذا الضالّ والجهل وينطلق مفسراً :

« يعني هذا الاب السعيد بادارة المنزل ان بنته تعرف شيئاً من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما اشبه ذلك من المعارف التي لا انكر انها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكني اقول ولا اخشى تكراراً انه مخطيء في توهمه ان المرأة التي لا يكون لها من البضاعة الا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها الى ادارة منزلها . ففي رأيي ان المرأة لا يمكن ان تدبر منزلها الا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والادبية » . « والحقيقة ان ادارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمصروف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائلة . وعليها مراقبة الخدم بحيث لا يفترون لحظة من مراقبتها وبغير هذا يستحيل ان يؤدوا خدمتهم كما ينبغي . وعليها ان تجعل بيتها محبوباً الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا آوى اليه . فتحضر له الاقامة فيه ويلذ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب الفرار منه ليقضي اوقاته عند الجيران او في المحلات العمومية . وعليها — وهو اول الواجبات واهمها — تربية الاولاد جسماً وعقلاً وادباً » . « ومن المعلوم ان الطفل لا يعيش من طفولته الى سن التمييز الا بين النساء » . « والام الجاهلة ليس في استطاعتها ان تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لانها لا تعرفها » . « وقد صار من المقرر عندنا ان الامهات لا ينفعن في تربية الاولاد حتى صار من المثل في الخطة ورداءة السيرة ان يقال فلان تربية امرأة » (٢)

بل هو يذهب الى أبعد من ان يحصر وظيفة الزوجة في ادارة المنزل وتربية الاطفال. هو يريد زوجة تتاصعه أفراحه وآلامه وكلامه وسكوته . يريد منها أختاً

(١ و٢) تحرير المرأة

زوجه فيشكو ويقول ان الرجل أحيانًا — ولست أدري هل كل رجل كذلك : —

يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالاشارة . يسكت في اوقات ويتكلم في اخرى ويضحك في غيرها » . له أفكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس . وفي كل فكرة تتولد في ذهنه واحساس يؤثر على اعصابه يود ان يجد بجانبه انسانًا آخر فيشرح له ما يشعر به ويتحاس معه » . « فاذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه واحزانه عنها ولا يلبث ان يرى نفسه في عالم وامرأته في عالم آخر . ومن ثم تبتدىء عيشة لا أظن ان الجحيم أشد نكالاً منها . حيث يرى كل منهما فيها ان صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة » . « والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى انه طويل أو قصير أبيض او اسود . أما قيمة زوجها العقلية والادبية وسيرته وطهارة ذمته ورقة احساسه ومعارفه وأعماله ومقاصده في الوجود وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل تا ويصير به الى ان يكون محترمًا محبوبًا ممدوحًا في أمته — فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه . وان وصل فلا يؤثر على منزلته في نفسها . وعلى هذا أول من يكون يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن انها تحبه ؟ » . « أبغض الرجال عندها من يقضي أوقاته في الاشتغال في مكتبه . كلما رأته جالسًا منحني الظهر مشغولاً بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التي تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي الا بنزاع جديد ولا يدري الزوج المسكين ماذا يصنع اذا أراد الجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم » . « ومن البديهي ان الرجل الذي يكون هذا حاله يفقد بفقد كل استعداد للعمل . لان الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه » (١)

هذه حالة المرأة فكيف يصلحها ويجعلها نافعة لنفسها ولغيرها ؟ ما الذي جعل الرجل افضل اليوم منهُ البارحة ؟ وعلى أي شيءٍ تنتصب أركانُ العمران ؟ أمرٌ أصبح شغلهُ الشاغل . فحمل قلمهُ ونظر اليهِ كمن ينظرُ الى الامل الوحيد في الدنيا وجرى بهِ على القرطاس المطيع ، ذلك القلم الذي قال فيهِ خليل مطران :

يدكَ القبيح وبني المليح رجوعًا الى سنَّة الراسم
يشعشع نورًا إذا ما انبرى يسيل على الدجى الفاحم

* * *

باحثةُ البادية تصلح كامرأة ، وقيل ان المرأة اكثر تشبثًا بالماضي . وقاسم امين يُصلح كرجل — اي يرسل نظره ابدًا الى الامام . هي تسيرُ بتحفظ بين تشعب الافكار الجديدة والآراء المستحدثة ، وكلما خطت خطوة التفتت الى الوراء لتتثبت من انها تابعة السبيل الذي يربطُ الامس بالغد . وكلما جاءت بتحرير

(١) « تحرير المرأة »

في النصوص الاصطلاحية حاولت سكبهُ في قالب الاعتدال مع مراعاة العادات المألوفة ما أمكن. هي كثيرة التحذُّر في إصلاحها، عملية متواضعةٌ في مطالبها، لا تبتعد فتراً واحداً عن حدود بيئتها وان حامت فوقها بما اوتيت من شجاعة وذكاء. إلا انك حينما تسمعها صارخةً كثيراً ما تظنُّ انها تفعل لتؤكد لكَ انها غير خائفة، ولك ان تقدّر كذلك انها تصرخ لتسمع صوتاً إنسياً — وإن كان صوتها — يبعد عنها الرعبَ والوجلَ في وحدتها الفكرية. أما قاسم فلا يصرخ ولا يخاف ولا يرتعش. في فكرهِ مقدار الكمال الكافي لاختطاط النظريات، وفي اصالة رأيهِ وحزمهِ من الجدارة ما يحوّل النظريات الى ما يطابق الواقع، بل هي الواقع بعينهِ. ولهُ جناحان يدفعان بهِ الى نقطة ادراكية يشرفُ منها على الماضي والحاضر والمستقبل وعلى جميع البيئات والامم والتواريخ. فيضع هناك كرسي القضاء — كرسيهُ — ويجلس متأملاً مقابلاً بين شعبٍ وشعب وعصرٍ وعصر، باحثاً في كل آنٍ وزمانٍ عن تلك السعادة الحلال المتمثلة لهُ في صورة امرأة «حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل». وبين زرافات النساء المارة أمامهُ تستوقفُ خاطرهُ امرأةُ بلادهِ، امهُ واختهُ وزوجتهُ وابنتهُ، اولئك اللاتي اوجدتهن الطبيعة صديقاتٍ لحزنهِ وانسهِ. وكأني بهِ يناديهن فيلبين النداء بطيئات متعثرات تعبات، ويدنين فيرى عليهن غشاء يمنع عنهن نور الشمس ونور الحياة: الحجاب!

لهذه الكلمة دويٌّ مرعب في نفسهِ كالدويّ أبواب السجون في مسمع من حُكم عليهِ بالسجن المؤبد ظلماً. فيمسكُ بهذا الحجاب ويقلبُ معانيهُ من جميع الوجوه، ويدرسُ تاريخ نشأتهِ وتأثيرهِ في الشعوب التي اقتبستهُ ثم نبذتهُ، ويحلل اسبابهُ ويتبصر في نتائجهِ، ويراجع أقوال الكتاب العزيز والحديث الشريف وعادات القوم، فيقرّر بعد البحث والتحليل انهُ ليس اسلامي الاصل ما دام انهُ استعمل عند امم سبقت الاسلام، وانهُ ليس واجباً على المرأة المسلمة ما دام ان ليس في الشرع نص صريح يأمر بهِ. هو في نظرهِ اثر من آثار الهمجية الاولى، بل هو «اقسى وانظع اشكال الاستعباد. ذلك لان الرجال في العصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء اما بالشراء واما بالاختطاف» ويتابع قائلاً:

«فلما بطل حق ملكية الرجل على النساء اقتضت سنة التدريج أن تعيش النساء في حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان لكنه ناقص غير تام. اكبر على الرجل ان يعتبر

المرأة التي كانت ملكاً له بالامس مساوية له اليوم فحسن لديه ان يضعها في مرتبة اقل منه في الخليقة . فزعم ان الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات » وقال انه « يلزم ان تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بان تقصر في بيتها وتستر وجهها اذا خرجت حتى لا تفتنهم بجمالها او تخدعهم بحيلها وانها ليست اهلاً للرقي العقلي والادبي ولزم ان تعيش جاهلة » . « وذلك هو السر في ضرب الحجاب وعلة بقائه الى الآن » . « ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هي الحجة التي اتخذها الرجال لاستبدادهم وجب علينا ان نبحث في طبيعة المرأة لنعلم ان كانت كما يقال احط من طبيعة الرجل ام لا » .. « ولا ريب ان المرأة اليوم احط من الرجل في الجملة ولكن علينا ان ننظر هل هذه الحال طبيعية لها او ناشئة عن طرق تربيتها » . « لان الرجال اشتغلوا اجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فانهن حرمن من كل تربية فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي . لا نريد بهذا التساوي ان كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه ولكننا نريد ان مجموع قواها وملكاتها تكافئ مجموع قواه وملكاته وان كان يوجد خلاف كبير بينهما لان مجرد الخلاف لا يوجب نقص احد المتخالفين عن الآخر » . « وبعبارة أخرى يوجد مذهبان احدهما ينصح للناس بالتمسك بالحجاب والثاني يشير عليهم بإبطاله » . « فأي المذهبين يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا ؟ أما الحجاب فضرره انه يحرم المرأة من حريتها الفطرية ويمنعها من استكمال تربيتها ، ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة . ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والادبية . ولا يأتي معه وجود أمهات قادرات على تربية اولادهن . وبه تكون الامة كانسان اصيب بالشلل في احد شقيه » . « واما الحرية فمزاياها هي ازالة جميع المضار التي تنشأ عن الحجاب وسبق ذكرها . وضررها الوحيد انها في مبدأها تؤدي الى سوء الاستعمال ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة الى ان تعرف مسؤليتها وتتحمل تبعة اعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية التي هي ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في مكافأة ولا لوجود حائل ليس في الامكان إزالته بل لانه قبيح في نفسه » . وبالجملة قال « المرأة لا تكون ولا يمكن ان تكون وجوداً تاماً الا اذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معاً ونمت ملكاتها الى اقصى درجة يمكنها ان تبلغها . والحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الامة وتقدمها » (١)

* * *

كم يخطىء من لم يعرف من قاسم امين سوى انهُ ينادي برفع الحجاب ، وهو الامر الذي اشتهر به ، وانهُ يريد للمرأة الحرية المطلقة بلا قيد ولا شرط ، وهو ما يقولهُ الذين لم يقرأوا كتبهُ ! انهُ من اكثر من اعرف محافظةً على انثوية المرأة ومنزلتها في العائلة والامة — وإن أنصفها في غير هذا الدور . فقد بسط رأيهُ في « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » كما يجيء في الجزء التالي

مي

(١) « المرأة الجديدة »